ثنائية الهامش والمركز في شعر الصعاليك

The duality of the margin and the center in the poetry of the Saàlikes

د.أمال بن صافي *

المركز الجامعي مغنية – تلمسان

bnsafyamal@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/26 تاريخ القبول 2022/04/11 تاريخ النشر 2022/05/04

ملخص:

يروم هذا المقال الوقوف على مواطن التهميش في شعر الصعاليك الذي لم يخل من التمثيلات لعوالم الهامش والمركز التي فرضتها وأنتجتها الطبيعة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، فنجدها في القصيدة العربية القديمة كنماذج يعتريها تصوير متعدد المستويات لحياة الصعلوك الرافض لقوانين القبيلة، مجسدة لكينونته المتمردة التي تحقق فعل التمركز في عوالم الهامش وقضايا الإقصاء.

الكلمات المفتاحية: الشعراء الصعاليك؛ الهامش؛ المركز؛ التمرد؛ التفرد؛ التحرر

Abstract:

This article aims to highlight the areas of marginalization in the poetry of the tramps, which did not lack representations of the worlds of the margins and the center imposed and produced by the social, political or economic nature. Concentration in the worlds of the margin and issues of exclusion.

***key words**:* Saàlikes poets; margin; center; rebellion; exclusivity; liberation.

---

* المؤلف المراسل

مقدّمة:

شكل نموذج الصعلكة وما يزال يشكل نواة التواشج بين المتخيل والواقعي للروح الجماعية التي تجسد تتلاقح ثنائية المركز و الهامش، ممثلة في العبودية والحرية وغيره، وهو ما يتوافق مع ما ورد في شعرهم مبرزا لقضية تفضيلهم لحياة الهامش في البرية على مخالطة القبائل التي رأوا فيها مصدرا للاضطهاد، ولا ننسى أن التهميش بتمييز اللون يحضر لدى الصعاليك، فدعوا بعضهم بأغربة العرب لسواد البشرة (تأبط شرا، والشنفرى وعروة بن الورد، السليك بن السلكة..وغيرهم)، فما الصعلكة ؟ و من هم الصعاليك ؟، وما معنى الهامش ؟، وما علاقة الصعلكة بالهامش؟ ، وفيم تتجلى مواطن التمركز والهامش في شعرهم؟

1- معنى الصعلكة :

1.1-الصعلكة لغة : اشتقت الصعلكة من الفعل" صعلك "الذي نُحِت من الفعلين : (صعل وصكّ)، وهو فعل سماعي كأغلبية الأفعال الرباعية .فالفعل" بُعثِر " كما في الآية(وإذا القبور بعثرت[1]) منحوت من بُعِثَ وأُثير ترابها"[2].

تحمل لفظة الصعلكة مدلول الفعلين معا، فالصعل هو دقة الرأس من النعام أو النخل أو الناس أو زوال الوبر من الحمار، والصك هو الضرب واللطم .فالجمع بين المدلولين يؤدّ ي إلى الفقر والعوز، واستعمال القوة لاكتساب الرزق والمال، إلاّ أن قصور الدلالة التي تقدمها المعاجم اللغوية، يقود إلى الاستعانة بالبيئة التي ولدتها، فقد ورد في لسان العرب تعريف الصعلوك بأنه: الفقير الذي لا مال له، و صعاليك العرب ذؤبانها، زاد الأزهري: ولا اعتماد"[3]، فالاعتماد هو الركيزة الأساسية التي تكمن في الحسب و النسب، أما "الصعلوك في اللغة فهو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها"[4].

جاء في القاموس المحيط "(صعلكه أفقره)...، والصعلوك الفقير، وتصعلكت الإبل طرحت أوبارها ..، وصعلك الثريدة إذا جعل لها رأسا، والمصعلك من الأسنمة الذي كأنما حدرجت أعلاه حدرجة ..."[5].

2.1-اصطلاحا: هي حركة من الثورة على النظام القبلي شارك فيها:

* أفراد خلعتهم قبائلهم لكثرة جناياتهم وجرائمهم.

** وآخرون من أبناء الحبشيات، أخذوا منهن سواد اللون فنبذهم المجتمع ظلما وهم " أغربة العرب".

*** أفراد احترفوا هذا السلوك كعروة بن الورد"[6].

ولقد فصّل د .يوسف خليف في أسباب حركة الصعلكة الجاهلية ودوافعها مركّزا على الجانب الاقتصادي[7]، والواضح أن الفقر، الذي يمثّله المعنى اللغوي، كان سببا رئيسا في نشوء هذه الحركة الاجتماعية والفنية لأن الصعلكة " ليست فقرا و حسب، ولكّنها فقر يغّلقُ أبواب الحياة في وجه صاحبه ويسدّ مسالكها أمامه"[8].

ولكن التركيز الشديد على الجانب الاقتصادي من الحياة العربية الجاهلية سببا أساسا للصعلكة ليس بالأمر الدقيق؛ لأن الأصل في ذلك كّله سلم القيم المختلّ الذي يميز بين أفراد المجتمع على أسس غير عقلانية، ... " فالصّعَلكةُ في حدّ ذاتها كانت تريد أن تؤكّد ذاتها، نظاما لقيمٍ عليا مثالية لا مجرد ظاهرة اقتصادية "[9] .

زيادة على هذا فالصعلكةُ «مذهبٌ في الحياةِ»[10] استدعت لغة مخصوصةً وطرائق في القول متميّزةً، ومما دعانا إلى تخيّر هذه الطائفة من الشعراء عدة أسباب أهمها:

—اتّصال جلّ قصائدهم بالواقع الذّاتي للشاعر التي بدت ذاتا متمرّدة رافضة لسلطة الذات الجمعية القامعة أي "القبيلة" التي مارست قهرا نفسيا موجعا وتردّد في الأقاويل المتخيّلة التي بدت أشبه بعصارة نفسية وذهنية عبّرت عن الاستلاب والاغتراب والنقمة والشفقة وشتى المشاعر المتناقضة.

-كما أن شعرهم شعرٌ غنيٌّ أيما غنى بالمادة التاريخية والاِجتماعية والسياسية والاِقتصادية والفنية/الأسلوبية والجمالية والنقدية للعصور التي قيل فيها، واِنعكاس أمين وواضح لهول الشرخ بين الشاعر(الهامش) والقبيلة/النظام (المركز)، الواقع المرير والقيم المتطلع إليها.

إن ظاهرة الشعراء الصعاليك قديمة قِدم الشعر نفسه، هم أولئك الذين عبّروا عن أفكارهم وقناعاتهم ورؤيتهم للحياة شعراً وسلوكا، واختاروا الهامش رفضاً للمتن(المركز)، والعصيان وعدم الطاعة، نتحدث عنهم بصيغة الجمع إلا أنهم أفراد لم يستطيعوا التقوّلب ضمن جماعة، ولعل الصعلكة نفسها لا تقوم إلا على الفردية، لأنها متى صارت حركة أو تياراً صارت متناً ومركزا لا هامشاً، فالعلاقة بين الصعلكة والهامش وطيدة ومتكاملة، ففيم يتجلى معنى الهامش؟

2- معنى الهامش:

1.2-لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور:"...همش: الهمشة؛ الكلام والحركة، هَمَشَ، وهَمِشَ القوم فهم يهمَشون ويهمِشون وتهامشوا والمرأة همش الحديث بالتحريك تكثر الكلام وتجلب. ويقول ابن عربي: الهَمَشُ والهمْشُ كثرة الكلام في غير صواب وأنشد: وهمشوا بكلام غير حسن"[11]، هذا التعريف يحيلنا على أن كثرة الكلام صبغة اصطبغ بها الهامش أي أن أدب الهامش هو أدب الغوغاء أو العامة، فالكلمة هنا تدل عن الحركة والرفض التام للصمت.

أما القاموس المحيط فيعرفه بما يلي:"...الهامش حاشية الكتاب (مُوَلَّدُ)"[12]، و كأنك تقول فلان يعيش على الهامش بمعنى منفردا، معزولا وبعيدا عن المجتمع وسلطته، ف"الهامشي الذي يعيش منفردا غير مندمج في المجتمع، مكتوب في الهامش: تعليقات هامشية لا دخل له بما هو مهم ولا علاقة له بالنشاط الأساسي "[13].

وقولك أيضا: " همش يهمش تهميشا: الكتاب ونحوه أي أضاف ملاحظات على هامشه، همّش الموضوع أي جعله هامشيا ثانويا "[14]. ونخلص من خلال هته المفاهيم إلى أن الهامش هو كل ما يتعلق بالعَرَضِيَّة وقلة الشأن والدونية والوضاعة ....

2.2-اصطلاحا: إن مصطلح الهامش له صلة وطية بعدة مجالات كالسياسة والاجتماعية والاقتصادية والثقافية..، كونه متعدد الابعاد والمواقف، حيث يطلق على كل متمرد منعزل منبوذ يستأنس بالوحدة، حسب **وايس Weiss** يوجد نموذجان للشعور بالوحدة: "واحدة نتيجة للعزلة الاجتماعية وأخرى متأتية من العزلة العاطفية. الشعور الأول مثبت عندما لا يكون الشخص ملتزمًا داخل شبكة اجتماعية ثرية وديناميكية لتلبي احتياجاته العاطفية والاجتماعية. والشعور الثاني يظهر عندما لا يكون الفرد في ارتباط وثيق بأشباهه"[15]، وهو أيضا الرافض لسلطة المركز ومتجاوز لقوانينها.

أما **فانسون بايدر** فيجمل ماهية الهامش في قوله: "فالهامشية بين المنحرف والمتشرد من الناحية القانونية، وبين المجنون والمدمن من الناحية الصحية، وبين الأمي والمهاجر من الناحية الثقافية، وبين الفقير جدا والعاطل من الناحية الاجتماعية والاقتصادية"[16] .لقد أتقن بلورة دلالة الهامش لكنه أهملا جانبا أساسيا ومؤثرا رئيسا يسعى دائما إلى التمركز وتهميش الآخر، إنه الجانب السياسي.

أما **أدب الهامش** فهو "كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أكاديمية، الذي يقع بعيدا عن الرعاية والاحتضان بل ويجري العمل على نبذه واستبعاده من دائرة الضوء وقد تسلط عليه الرقابة والمنع إذا ما بدا أنه يتجاوز الخطوط الحمراء المنبه عليها"[17]. وهذا ما يتطابق مع قول لجابر عصفور عند عندما تحدث عن "إرادة الإبداع" عند-إدوارد الخراط- حيث يرى أنها:" تتحدى سلطة الكتابة المهيمنة، باحثة عن نغمتها الخالصة وسط ركام المألوف والمعتاد، بعيدا عن غواية المركز، حيث أن الهوامش التي لا تعرف سوى الابحار صوب المجهول الذي يظل في حاجة إلى

كشف، فالسلطة هنا ليست سلطة الدولة ولكنها سلطة الكتابة الكلاسيكية التقليدية، فكل كتابة إبداعية تخرج عن النسق المألوف تعتبر (كتابة هامشية)"[18].

فأدب الهامش هو ذلك الأدب الذي يعيش تحت الظل البعيد المظلم ، مخترقا للمألوف ومتجاوزا للعادات والعرف والتقاليد ضاربا بها عرض الحائط، ذلك لأن المبدع لا يعرف القيود ولا يعترف بالقوانين، فيبقى منفردا ومتميزا عن غيره في التفكير والتعبير، وهذا ما ينسجم مع شعر الصعاليك الذي يعد ظاهرة فريدة في مسار الشعر العربي كونه يشكل ثورة على المستويين الاجتماعي والفني معا و في الوقت نفسه يحيلنا على نصين في آن واحد: نص مركز هو النص الجاهلي الذي لا يحمل مثل تلك الثورتين مقابل نص هامش هو النص الصعلوكي الذي يزخر بملامح الصراع الاجتماعي فيتم قولبته في شكل فني مميز ومناسب يعمل على تعميق الصورة الفنية المبدعة.

3-تمظهر الهامش من خلال الفقر:

ترددت صيحات الفقر والجوع والحرمان في شعرهم بسبب رفضهم وتمردهم وثورتهم على الأغنياء والأشحاء، فأضحت الصعلكةُ رابطةً قويةً لأنّهم كانوا يعيشون في عصر همّش الفرد، فتكتّلوا في جماعات ونشأت بينهم رابطة نفسية بهدف التّغلّب على الخصاصة وسدّ الخلّة بكسب المال؛ وامتازوا بالشجاعة والصبر وقو ة البأس والمضاء، فقرروا: إمّا الغِنَى وإمّا المؤتُ، يقول **عروة بن الورد**:

دعيني للغنى أسعى فإني****رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ

وأبعدهم وأهونهم عليهِم****وإن أمسى لهُ حسبٌ وخيرُ

ويُقصيهِ النّديُّ وتزدريهِ****حَليلتُهُ وينهرُهُ الصــــغيرُ

ويلقى ذا الغِنى ولهُ جَلالٌ****يكادُ فؤادُ صَاحبِهِ يَطيرُ

قليلٌ ذنبُهُ والذنبُ جمٌّ****ولكِن للغنى ربٌّ غـــــفُورُ[19]

يضيف قائلا:

قد عيّروني المال حين جمعته وقد عيّروني الفقر إذ أنا مقتر.

يصف مبروك المناعي حالة الصعاليك قائلا: «إنّ خيطا رفيعا يربط بينهم؛ هو الفقر والإحساس بالظلم والهامشية الاجتماعية»[20]، فالمجتمع الذي ينتمي إليه عروة مجتمع متعسف يحتقر الفقراء (الهامش) لا لشيء إلا أنهم متهمون بالفقر وفي الوقت نفسه يعظم من شأن الأغنياء(المركز) ويرفع مكانتهم بسبب ثروتهم فقابل عروة هذا التصرف بالرفض التام والتمرد على نظام القبيلة المجحف، فقرر السعي قصد الحصول على المال قائلا:

إِذَا المرْءُ لمْ يطلُبْ معاَشًا لنفسه شَكَـا الفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَا.

وبالتالي هو يسعى إلى الانتقال من الهامش الذي هو الفقر نحو المركز الذي يتجلى في الغنى.

ثم نقف عند **السليك بن السلكة** و هو يصور حالته المزرية جراء الفقر المذقع والتهميش، وما لحق به من ضرر بسبب الجوع، فقرر المجازفة والاستيلاء على أموال الغير والانقضاض على إبلهم، إذ يقول :

وما نلتُها حتى تصعلكتُ حِقبــةً وكدتُ لأسباب المنيّة أعـــرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرَّني إذا قمتُ تغـشاني ظِلال فأسدُف

فلفظة "**نلتها** " تدل على كسب بعد طول معاناة وانتظار، وقوله: " تصعلكت"؛ أي: أن الصعلكة مبدأ اجتماعي مشروع من أجل كسب العيش، وهو ما دعا إليه كل من عروة وحاتم، لكن لا يستطيع القيام به إلا من يقدم ببسالة على "أسباب المنية"، وقوله "كدت لأسباب المنية أعرف..." أي: خاطرت، وغامرت، وتعدَّيت، وصبرت على الجوع مدة من الزمن حدده باللفظ "الصيف، فتصعلُك السليك وأمثاله إنما هو استجابة للظروف البيئية التي صنفتهم في خانة "الهامش ".

وهذا **الشنفرى** يتفنن في وصف الفقر والجوع والحرمان ويبدع فيه قائلا:

وَأَطْوِي على الخَمْصِ الحَوَايا كما انْطَوَتْ خُيُوطَةُ مارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ

وأَغْدُو على القُوتِ الزَهِيدِ كما غَدَا   أَزَلُّ تَهَادَاهُ التنَائِفَ أَطْحَلُ
غَدَا طَاوِياً يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِياً   يَخُوتُ بأَذْنَابِ الشِّعَابِ ويُعْسِلُ
فَلَما لَوَاهُ القُوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ   دَعَا فَأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ نُحَّلُ

فالخمص هو الجوع والحوايا هي الأمعاء و"ماري" هو رجل اشتهر بصناعة الحبال وفتلها وهاته المصطلحات مجتمعة تدل على انطواء أمعائه من شدة الجوع كأنها مخاطة يابسة انطوى بعضها على بعض كأنها حبال أُتقِن فَتْلُها لِخُلوِّها من الطعام، ثم يشبه نفسه بذئب نحيل الجسم جائع ينتقل بين الفلوات بحثا عن الطعام وبعد أن يئس هذا الذئب من العثور على فريسته استغاث بجماعته فأجابته وهي جائعة نحيلة ضامرة، فكل هاته المصطلحات تُنبِيءُ بالهامش الذي يعانيه الصعاليك من جراء الفقر والحرمان.

وفي السياق نفسه نجد **تأبط شرا** "يصف نفسه بأنه لا يملك من الزاد إلا تعلة تحول بينه وبين الموت، حتى ظهرت أضلاعه من النحول، والتصقت أمعاؤه من الجوع، فيقول:

قليل ادخار الزاد إلا تعلة   فقد نشز الشرسوف والتصق المعا "[21]

هذا والأمثلة التي تصب في قالب الفقر لدى الصعاليك كثيرة، ويصعب أن نجملها كلها[22].

4- تجليات الهامش من خلال النسب:

عرف ابن منظور الصعلوك بأنه:" الفقير الذي لا مال له، و زاد الأزهري: ولا اعتماد"،فهو " الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها"، ولفظة الاعتماد إشارة إلى الحسب والنسب الذي يعتمد عليه الجاهلي في عصبيته، لأن النسب ركيزة اجتماعية أساسية وجل الصعاليك مجهولي النسب أو ينسبون إلى أراذل القوم، ونظم جل الشعراء الصعاليك أشعارهم حول النسب الذي يشكل هامشا بالنسبة لهم فنستهل ب**عروة بن الورد** "عروة الصعاليك "الذي ليس له ما يفتخر به إذ يقول في مقطوعة بعنوان إذا أردت المجد:

مَا بِيَ من عارٍ إخالُ عَلِمــــتُهُ   سِوى أنَّ أخْوالي إذا نُسِبُوا، نَهدُ
إذا ما أردتَ المجدَ قصَّرَ مَجدُهم،   فأعيا عليّ أن يُقارِبَني المــجدُ
فيا ليتَهُم لم يضربوا فيَّ ضــربَةً   وأني عبدٌ فيهِم وأبي عــــــبدُ
ثعالبُ في الحربِ العوان، فإن تبُخ   وتنفرجِ الجُليّ، فإنهُم الأسدُ

عاش عروة بن الورد في كنف والده الذي يعد من أشراف عبس وفرسانها الأشاوس، له دور بارز في حرب داحس والغبراء، أما أمه فكانت من (نَهْد) من قضاعة ، وهي عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف، فآذى ذلك نفسه، وأحس في أعماقه بعارٍ لا يمحى، حيث لم يرضَ بذلك النِّسب المقِيت التي حَكَم من خلاله على قبيلة نهد (المشهورة بين قبائل اليمن) بقلَّة الشرف وضعف الهِممِ و المجدِ؛ ما جعله يتحسَّرُ ويأسف أسفًا شديدًا على تلك الرابطة التي وصلَت أباه العبسي بأمه النهدية، فقوله: " قصَّر مجدهم أي لم يبلغ مجدنا ..، و قوله: لم يضربوا فيَّ ضربة : لم يكونوا قد أسهموني في النسب وأشركوني فيه ..."[23]، يرى عروة في أخواله العار الذي يشكل الهامش في النسب فهم أسود في السِّلم وثعالب في الحرب وهذا يدل على وضاعتهم و يوضح الفرق الشاسع بينه وبينهم، فهو الفارس الشجاع المقدام الذي لا يهاب شيئا وهم العار الذي شكل الهامش في حياته.

نصل إلى **الشنفرى** الذي لم يكن أكثر حظا من عروة، ولا أفضل نسبا، فهو الذي سُبِيَ من طرف بني سلامان وهو صغير فجعله الذي سباه في بهمه أي صغار الماعز يرعاها هو وابنة له تدعى قعسوس، ولما لطمته وأهانته بتكبرها وترفعها عنه أبدع قائلا:

ألا هل أتى فتيان قومي جماعة   بما لطمت كفّ الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي   ونسبتها ظلت تقاصـــر دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها   وأمي ابنة الخيرين لو تعلمينها
إذا ما أروم الودّ بيني وبينها   يؤم بياضَ الوجه منّا يميـــنُها.[24]

فالشنفرى كان من الأواس من قبيلة أزد فأُسِرَ و استُعبِد ثم أُهين من "قعسوس" التي كان يحسبها أختا له..."[25]، نستشف تمركز الهامش في هاته الحادثة، من خلال ثورته الجامحة (الهامش)، "حين عرف أن بني سلامان استعبدوه، وهو صغير، وألصقوه بنسبهم، فقال لهم :أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مئة بما استعبدتموني"[26]، فاستعباد الشنفرى وهو حر أصيل واخفاء نسبه الحقيقي عنه ببتر جذوره وإهانته واستغلاله وعزمه على الانتقام كلها سمات تدل على مكانته الهامشية أو المهمشة ،العادات والتقاليد المدانة، قد حولته من السيادة(المركز) إلى العبودية (الهامش).

نتوقف الآن عند **السليك بن السلكة** الذي انتسب إلى أمه الحبشية السوداء، حيث ورث سواد البشرة عنها فنعت بالغراب وأطلق عليه لقب "عداء الصعاليك" فقيل: أعدى من السليك وأمضى من سليك، فالعدو ميزة من مميزات التي ينفرد بها الصعاليك، لكنها لم تستطع تخليص السليك من آلامه وحسرته لمرآى خالاته يخدمن الرجال الغرباء على غير عادات العرب وما خلاصهن ألا بالمال الذي لا يملكه، فيقول:

أَلا عَتَبَت عَلَيَّ فَصارَمَتني	وَأَعجَبَها ذَوو اللِّمَمِ الطِـــوالِ
فَإِنّي يا اِبنَةَ الأَقوامِ أُربي	عَلى فِعلِ الوَضيِّ مِنَ الرِجالِ
فَلا تَصِلي بِصُعلوكٍ نَؤومٍ	إِذا أَمسى يُعَدُّ مِنَ الــعيَــالِ
وَلَكِن كُلُّ صُعلوكٍ ضَروبٍ	بِنَصلِ السَيفِ هاماتِ الرِجالِ
أَشابَ الرَأسَ أَنّي كُلَّ يَومٍ	أَرى لي خَالَةً وَسطَ الرِجــالِ
يَشُقُّ عَلَيَّ أَن يَلقَينَ ضَيماً	وَيَعجِزُ عَن تَخَلُّصِهِنَّ مـــالي

إن أبيات السليك تدل على رفضه التام لوضعية خالاته وتحط من قيمة الرجال المستعبدين لهن، وحسرته عليهن دون قدرته على تخليصهن وسواد بشرته وعدم امتلاكه للمال المخلص ونسبه لأمه السوداء وغيرها، كلها سمات تصنفه في خانة الهامش.

5- تموقع الهامش في قيم الرفض والتمرد:

" لقد مثل شعر الصعاليك في العصر الجاهلي نتوءا ثقافيا آخر في جسد الأعراف الثقافية، من حيث عدم خضوعه المطلق للتقاليد الفنية المتعارف عليها، مثل البنية الهيكلية للقصيدة في مطلعها وترتيب أغراضها، فقد فرض شعر الصعاليك أعرافا خاصة وتقاليد مغايرة تماما، ربما أهمها رفض فكرة الأطلال وإلغاؤها من القصيدة بوصف أن الطلل دلاليا ورمزيا محور الانتماء والالتصاق بالأرض/الوطن"[27]، هذا من ناحية الشعر، أما من جهة أسلوب الحياة فالصعلوك فاقد الانتماء للوطن، ملتصق أشد الالتصاق بأقرانه من المنبوذين، وحيوانات الصحارى، فقد استعاض عن أهله ووطنه بأي مكان يمكن أن يحويه،

فنلمس نغمة الشجن واضحة مثلا في مقطع من قصيدة **للشنفرى** حين يقول:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ   فَإِنِّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ
فَقَدْ حُمَّت الحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ   وَشُدَّتْ لِطِيّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وفي الأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى   وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ
لَعَمْرُكَ مَا بِالأَرْضِ ضِيقٌ على امْرِىءٍ   سَرَى رَاغِبَاً أَوْ رَاهِبَاً وَهْوَ يَعْقِلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُون: سِيدٌ عَمَلَّسٌ   وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ
هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَودَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ   لَدَيْهِمْ وَلاَ الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ[28]

ف"**الشنفرى**" يريد استعداد قومه لرحيله عنهم لا لرحيلهم عنه، وربما أشار بقوله هذا إلى أنهم لا مقام لهم بعد رحيله، فلا مفرّ منه، الكريم يستطيع أن يتجنب الذلّ، فيهاجر إلى مكان بعيد عمَّن يُنتظر منهم الذلّ، كما أن اعتزال الناس أفضل من احتمال أذيتهم، لقد اختار مجتمعاً غير مجتمع أهله، كلّه من الوحوش، وهذا هو اختيار الصعاليك ثم قارن بين أهل قبيلته ومجتمع الوحوش، فيفضل هذا على ذاك، و قد وصف الوحوش بالأمناء لأنهم لا يُفْشون الأسرار، ولا يخذل بعضهم بعضاً بخلاف مجتمع أهله، فأبياته طافحة بالمرارة، فهي تمعن في الهرب من الإنسان/المركز، إلى هامش متخلى عنه، ليكون

الإمعان في الهرب نبذا لفكرة الجماعة والتقيد بمقرراتها عبر الإنفراد بالذات والحيوان الذي يحمل الذات في أسطرتها لعالم الحيوان.

ولم يكتف **الشنفرى** بالقطيعة مع القبيلة والقوم، وهو حيٌّ، وإنّما فضّل أن تستمر هذه القطيعة، حتى بعد موته، فقد أوصى الذين أسَروه وهمّوا بقتله، أنْ لا يُدفن مع بني البشر، وإنّما يُقدَّم طعامًا للضباع؛ أحد أفراد (عائلته) الجدد، فهو يبشّرها بلحمه [29]:

لا تَقْبرُوني، إنَّ قَبْري مُحَرّمٌ عَلَيْكُـمْ، وَلَكِنْ أَبْشري **أُمَّ عامِرِ** (كنية الضبع)

أما **تأبط شرا**، الذي جاور الغيلان، وتصارع معها، فقد ألف الوحوش، ولم يعد يخافها، لأنه ألفها واستأنسها، وهذا مما يدل على قوة تأبط شرا وثباته، وعلى استقراره ببيت الوحش، واتخذ من الوحش رفقة ومسكنا بديلا عن القبيلة والقوم، بل تحوّل صيده إلى الإنسان وما يملكه[30] :

يَبيتُ بِمَغْنى الْوَحْشِ حَتّى أَلِفْنَه وَيُصْبَحُ لا يَحْمي لَها الدَّهْرَ مَرْتَعا

****

أَيْنَ فَتًى لا صَيْدُ وَحْشٍ يَهُمُّه فَلَوْ صافَحَتْ إِنْسًا لَصافَحْنَهُ معا

وَلَكنَّ أَرْبابَ الْمَخاضِ يَشُقُّهـمْ إذا اقْتَفَروهُ واحدًا أو مُشَيَّعَا[31]

خاتمة:

وفي الختام نقر بأنه لا يمكننا أن نجمل جل شعر الصعاليك بأغراضه وصوره الشعرية وموضوعاته في وريقات، ونخلص إلى القول:

هذا حال الصعلوك المهمش الذي يمضي مكبًّا على وجهه في الأرض الواسعة، لا يبالي، لأنّه غير مرتبط، ولا مقيّد، لقد فكّ قيود المجتمع القبلي وتحرّر من سيطرة السلطة –سلطة الشيوخ والأسياد(المركز)، وأخذ يتفاخر ويتباهى بعالمه الجديد (عالم الوحوش)الذي ألفه وأمسى مسكنه ومستقره بعيدا عن المألوف، إذن أصبح يعيش مستقلا في عالمه الخاص الذي يمثل الهامش بالنسبة لقبيلته، أما بالنسبة له فهو المركز الذي وجد فيه ضالته، فجاء

شعر الصعاليك عامة للدّلالة على خرق محرّمات القبيلة وحرماتها، ومقدّساتها وطقوسها، والتمرد على سلطتها، ونبذ هيكل تنظيمها، ومؤسسات مجتمعها، بغية البحث عن مشروع مجتمع جديد، لا تذوب فيه فردية الإنسان، وَلا تضمحلّ شخصيته في رموز القبيلة وأسيادها، ولذا نجد في معظم شعرهم ذلك النفور من ضمير (الهو)، وصيغة الجمع (النحن) التي تمثل السلطة أو المركز، إلى ضمير (الأنا)، وإن استُعمِل في صيغة الجمع، فليس للذوبان في الجماعة، وإنّما قصد التجمّع ولمّ الشتات، ولكنّ الصعلوك في آخر المطاف، يُبقي على تفرّده وفرديته وذاته، بجسده وغريزته وانفعالاته، لا لشيء إلا أنه ذلك الإنسان الذي لا تضبطه قوانين الآخر، فينصاع لأوامره و نواهيه، فلا يحدَّد بمكان، ولا يُقيّد بزمان، وإنّما ينشد حركية الزمان واستمراريته نحو المستقبل، مصيره مرتبط بالطبيعة(الهامش)، وليس بالقبيلة، فهو انفصام مكاني، وتميّز عن الآخر، وانتصار على المركز.

الهوامش:

---

[1]- سورة الانفطار، الآية: 04.

[2]- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج1 ، المكتبة العصرية، بيروت، ط 16 ،1983، ص226.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، ج 10، دار صادر، بيروت، ط3 ،1994، ص455.

[4]- يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب، القاهرة، ص17 .

[5]- عبد الحليم حفني، شعر الصعاليك؛ منهجه وخصائصه- الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ط1 – سنة 1987، ص17.

[6]- الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف: د.محمود حمدي زقزوق، مطابع الأهرام، قليوب، مصر، ص864.

[7]- يوسف خليف، الشعراء الصعاليك، دار المعارف، القاهرة، ط1978،3 ، ففي الفصلين الأول والثاني شرح واف لأسباب الصعلكة في العصر الجاهلي.

[8]- المرجع نفسه، ص 21.

[9]- هلال الجهاد، فلسفة الشعر الجاهلي، دار المدى، دمشق،2001 ، ط1 ، ص113.

[10]- حفني عبد الحليم، شعر الصعاليك؛ منهجه وخصائصه، ص 20.

[11]-ابن منظور، لسان العرب، مجلد 15، ص92.

[12]-محمد إبراهيم، الفيروزأبادي، الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1999، ص450.

[13]-أنطوان نعمة وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دارالنشر، بيروت، ط1، 2000، ص149.

[14]-أحمد العايد وآخرون، المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة، لاروس، 1989، ص 1272.

[15] - de Marc-André Delisle, La République du silence. P 17 chapitre 1 Édition les classiques des sciences humaines 1987.

[16]-بركات محمد أرزقي، الثقافة الهامشية و أثرها على الانحراف "دراسة ميدانية نفسية اجتماعية " رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في علم النفس الاكلينيكي، إشراف الأستاذين: د.نورالدين طوالبي و د.مصطفى حداب ، جامعة الجزائر، 1988-1989، ص 27.

[17]- حسن البحراوي، أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية، مجلة علامات، مكناس، المغرب، العدد18، 2002، ص9.

[18]-أحمد ندا، أولاد البلد: أدب المهمشين بين النخبة والصعاليك، ينظر الموقع: masr.20at.com/newArticle.php?sid=9400 - 56k، بتاريخ: 2016/03/06.

[19]- أسماء أبو بكر، ديوان عروة بن الورد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص79.

[20]- مبروك المناعي، الشعر والمال، باب سبل التموّل، أطروحة دكتوراه؛ منشورات مركز النشر الجامعي- تونس- ص434

[21]- حفني عبد الحليم، شعر الصعاليك؛ منهجه وخصائصه، ص186.

[22]-للاطلاع أكثر على شعر الصعاليك الذي انحصر موضوعه في الفقر أنظر: حفني عبد الحليم، شعر الصعاليك؛ منهجه وخصائصه.

[23]-أبو يوسف يعقوب بن اسحاق السِّكيت، شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، صححه الشيخ ابن أبي شنب، خزانة الكتب العربية، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1962، ص 107.

[24]-أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر –بيروت، ط2، ج 21، ص 186.

[25]- أخبار الشنفرى ونسبه، نقلا عن كتاب الأغاني ,الجزء الحادي والعشرون، موقع الحكواتي، المؤسسة العربية للثقافة، 2013. http://al-hakawati.la.utexas.edu/2011/12/28/، بتاريخ 2016/03/10.

[26]-فاروق أحمد اسليم، الانتماء في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،1998 ، ص118 .

[27]- أنظر: محاضرات في الثقافة العربية قبل الإسلام، د.ثناء أنس الوجود، موقع http://www.alukah.net/literature_language، بتاريخ : 2016/04/14.

[28]- أنظر اللامية و شروحها من خلال المراجع الآتية "أعجب العجب في شرح لامية العرب" للعلامة جاد الله محمود الزمخشري المعتزلي، إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب، أبو جمعة الماغوسي المراكشي، تحقيق وتقديم محمد أمين المؤدب، توزيع مكتبة الرشاد، ط 1، سنة 1997 .

[29]- عمرو بن مالك الشنفرى، ديوان الشنفرى، جمعه وحققه وشرحه: إيميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1996، ص 48.

[30]- حبيب بن أوس الطائي، أبو تمام، ديوان الحماسة، شرح التبريزي، مصر، مطبعة السعادة، الطبعة الثالثة،1927، ص191/190.

[31]- المصدر نفسه، ص 344.